المنهاج العلمي لبعث الحضارة العربية

د. عفيف بهنسي

اســـــم الكتـــــاب: المنهاج العلمي لبعث الحضارة العربية

اســم المــؤلـــــف: د. عفيف بهنسي

الترقيم الـــــدولي:ISBN:9789776689213

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: جمهورية مصر العربية/ محافظة الجيزة/ مدينة السادس من أكتوبر/ ٣٣ التمويل العقاري.

هاتف: ٠٠٢٠٢٣٨٨٥٠٦٤٩/ موبايل ٠٠٢٠١٥٥٣٢٤٧٤٨٦

البريد الإلكتروني: tahreradbe@gmail.com

المنهاج العلمي
لبعث الحضارة العربية

د. عفيف بهنسي

لم يكن قصـدنا عند الحديث عن وحدة الحضـارة العربية أن نقوم بعمل أثري ننقب فيه عن معالم الماضـي في شـخصـية الأمة العربية، بل إنما أردنا أن نحدد الهوية العربية بعيداً عن التفسيرات العرقية التي كانت سائدة في عصر القوميات، وأن نضع مقوماً أكثر تشخيصاً لمفهوم القومية، ليس بالنسبة للأمة العربية وحسب، بل بالنسـبة لأية أمة تحدد مقوماتها من خلال وجود إنسـاني تاريخي، ولكن هذا المنطلق التاريخي الواقعي قد يبدو تنظيراً مجرداً يصـعب على التحقيق، فإذا هو انطبق على الماضي فمن الصعب أن ينطبق على المستقبل، وهكذا تبدو الشخصية العربية كياناً أثرياً محنطاً.

ولكيلا نقع في حبائل التجريد، كان لا بد من البحث عن منهاج عملي لبعث الوحدة الحضـارية التي كانت إطار الوجود العربي في تاريخه الطويل، ومن المؤكد أن هذا المنهاج لن يكون بإعادة ترميم آثار الحضـارة القديمة لوضـعها في متاحف الحاضر، ولن يتم عن طريق تكرار ونسخ الحضارة السالفة أو حتى تقليدها، فليس المسـتقبل الزاهر تكراراً لماضٍ زاهر، فكما أن التاريخ والزمان لا يتكرران، كذلك الحضـارة فهي لا تتكرر لأنها كيان مادي يختزن مواقف الإنسـان وإبداعاته عبر الزمان. فهي طاقة ثقافية تمد المسـتقبل بمعطيات أصـلية، أو هي روح متنامية لوجود قومي متحرك.

ليس بناء المستقبل عملاً سياسياً تقرره نظم وحروب، وإنما هو عمل حضاري صـرف، يزداد إمكاناً بقدر ما يتضـح التاريخ بأبعاده المختلفة، كما يزداد رسـوخاً بقدر ما يتضـح المنهاج العملي لبناء المسـتقبل، هذا المنهاج الذي قد يسـمى ايديولوجية الحركة، وباعتقادنا أن هذه الايديولوجية تقوم على أربعة منطلقات، أولاً إيضـاح معنى القومية، ثانياً تحديد مفهوم الوحدة القومية، ثالثاً ربط الأصـالة

بالمستقبل وأخيراً ربط الثورة بالثقافة.

القومية-الحضارة

كثيرة هي المصطلحات والتسميات المتداولة والتي تحمل مفهوماً نسبياً عامياً، دون أن يتحدد هذا المفهوم في تعريف دقيق يساعد في عملية تنظير الفكر وجعله أكثر علمية.

ولعل من أصعب الأمور وأعقدها تعريف المسلمات، إذ أنها تستقر بمعانيها النسبية في أذهان الناس ثابتة جامدة، وعندما تتعارض مع حدود التعريف العلمي تبدو وكأنها نظرية جديدة غريبة.

ولقد استغرقتنا، منذ بداية النهضة، أفكار عامية لم نستطع حتى الآن تحديدها علمياً، فأدى هذا إلى (ميوعة) التفسير والتأويل، وإلى فوضى الأفكار والاتجاهات، هذه الفوضى التي كثيراً ما فسحت المجال لتسرب آراء وعقائد غريبة نفذت إلى قناعات فئات من الشعب متأثرة ببريق شكل بنائها العلمي أو الروحي.

ومما يؤسف له، أن أكثر الأفكار خطورة في تقويم واقعنا الذي نعيش، هي الأكثر تعرضاً لتلك العامية في التفسير والتأويل.

ومن هذه الأفكار الأساسية فكرة "القومية" التي كثيراً ما تعني الرابطة العصبية، وقد تحققت بأسباب مختلفة.

والواقع أن التعريف يمكن أن يقترب من الإطلاق والشـــمول في كـل مرة نستطيع فيها أن نترجم خصائص المصطلح ترجمة مادية مشخصة.

فعندما نتحدث عن الأمة فإن العنصر المشخص لهذا المصطلح هو عنصر الإنسان، فالأمة وهي مشتقة من الأم، هي إطار يربط مجموعة من الناس تحددهم أوصاف تاريخية واجتماعية وسياسية واضحة.

أما القومية فهي لا تعني الأمة بذاتها بل تعني خصـــائص هذه الأمة، هذه الخصائص المادية المشخصة التي تتجلى في التراث، وهو مجموعة عطاءات أمة من الأمم عبر التاريخ.

وليس هذا التعريف غريباً عن تعريف الحضـــارة، لهذا نقول إن القومية هي الحضارة. ومن هذا المنظور تبدو القومية واضحة الأبعاد والمضمون وتصبح رابطة ثقافية اجتماعية يقوى الانتماء إليها بقدر ما يتوســـع تعرفنا لتفاصـــيل الإنجازات والعطاءات الحضارية.

ونستطيع أن نتعرف القومية العربية من خلال طموح الأمة العربية عبر تاريخ طويل امتد منذ نهاية العصـــر الحجري، لكي تقدم لغة ما زالت قائمة، تتزايد مصـــطلحاتها مرتبطة بالمعاني ارتباطاً عضـــوياً، ولكي تقدم كتابة وأبجدية أفادت العالم بمعطياتها. ولكي تقدم عقائد ســماوية حددت معنى المثل الأعلى الكامن في ســر إلهي هو صــبوة الإنســان للكشــف عن معاني الوجود، وحددت بذلك مســار التاريخ واتجاه المستقبل.

ولئن كانت القومية تحدد بعنصر اللغة والدين والآمال، فليست هذه العناصر إلا صيغاً حضارية بذاتها، ولا بد من التعمق في فهم هذه العناصر لتوضيح معنى القومية.

وهكذا فإن معرفتنا للقومية العربية تتطلب اطلاعاً واسعاً على منجزات الحضارة، فليس الإيمان القومي مسألة غيبية أو عنصرية، بل هو ممارسة ثقافية واسعة. وبمعنى آخر إن الانتماء إلى القومية العربية، ليس عرقياً وليس قسرياً، ثم هو لا يعني انتماءً وطنياً وإن كان يشمله، ولا يعني انتماءً تمدنياً فليست القومية هي رابطة عرق وجنس كما هو شأن مفهوم القومية في الغرب، وليس العربي عربياً بنسبه بل بثقافته العربية، بتفاعله مع هذه الثقافة وتحمله مسؤولية الإبداع والبناء فيها. وليس هذا الانتماء قسرياً يفرض فرضاً عن طريق الاستعمار أو الاستبداد والاستعباد، بل هو تلقائي يبتدئ انتماء بالضرورة، وينتهي مع التوسع الثقافي التراثي انتماء بالفعل.

إن هذا يعني أن مجرد ارتباط إنسان ما بهوية مجتمع سياسي معين لا يعني انتماءً قومياً بل على العكس فإن الانتماء القومي يؤكد الهوية الوطنية ويوضح أبعادها. ولأن مفهوم الحضارة يختلف عن مفهوم المدنية التي تعني شكل الحياة الذي تصنعه التقنية المتقدمة. فإن تبني هذا الشكل الحياتي أو ذاك، لا يعني انتماءً قومياً ولا يؤثر فيه سلباً، بل إنما يساعد على جعل الممارسة القومية أكثر معاصرة وأغنى تجربة. فإذا كان الانتماء القومي هو الممارسة الحضارية الأصيلة، فإن فتح النوافذ أمام أشكال المدنية العالمية هو ربط هذه الممارسة بالثقافات العصرية، وإبعادها عن السلفية التي تجعل من الانتماء القومي موقفاً رجعياً

إن ما أتينا عليه من توضـيح لمعنى القومية يسـاعدنا كثيراً في تنظير فكرنا القومي. فليس المقصـود أن نقيم ايديولوجية لاحقة للواقع القومي، لكي تساعدنا في تنظير فكرنا القومي، بل كثيراً ما كانت الايديولوجية قاعدة نظرية تفرضـها السـلطة السياسية فرضاً، وهي تزول وتتغير بزوال وتغير هذه السلطة. وكثيراً ما كانت إساراً للفكر وتعميماً للثورة وتفريغاً للانتماء.

فالتنظير الذي تخططه المنجزات الحضارية، تصنعه الثقافة التراثية الأصيلة، أي أن دسـتور القومية العربية هو تاريخ الحضـارة ذاته، وبقدر ما نتوسـع في تقديم الدراسات الحضارية، نساعد على التعمق في تحديد بنود الدستور القومي.

وإذا كان مفهوم القومية يعتمد على خصـائص مشـخصـة تحددها منجزات الحضـارة، فإن هذا يسـاعدنا على جعل مفهوم القومية علمياً موضـوعياً، وليس مفهوماً عاطفياً عصـبياً. وبهذا المعنى فإن دراسـة تاريخ الحضـارة والتراث يجب أن تبتعد عن الشوفينية والغرور وعن السلفية والرجعية.

إن المنطلق الأسـاسـي لتنظير الفكر القومي هو تحرير الثقافة وتعريبها. فلقد تكاثرت المؤثرات الثقافية حتى وصلت الحد الذي أخرج الثقافة عن هويتها الأصيلة وربطها بهويـات غريبـة. وتم هـذا الانحراف بفعل القوى الأجنبيـة الطـامعـة التي رسـخت دعائم الاسـتعمار الثقافي، أو بفعل الاتجاهات الثقافية الوطنية التي أخذت بالفكر المستورد أو خضعت للقومية الأوربية.

والثورة الثقافية كما نفهمها، إنما تتجه إلى تحرير الثقافة الحديثة من طغيان

التيارات والمذاهب المستوردة أو المفروضة، وإعادة الثقافة إلى أصالتها. والأصالة هي تمثل التراث في كل عمل إبداعي. أي أن بناء المستقبل إذ يتم عن طريق العمل المبدع، فإنه يقوم على حصيلة عطاءات الأمة عبر التاريخ.

وعندما تتوضح خصائص القومية بالمعطيات الحضارية، فإن السمة الإنسانية تبدو أكثر تأكيداً فليست الصفة القومية للحضارة إلا لتزيدها مشروعية وأصالة، والحضارات هي ثقافات مفتوحة على الناس جميعاً وهي تزيد المعرفة الإنسانية غنى، ولا يتعارض تعدد الثقافات مع أية نزعة إنسانية، فليس من قائل بضرورة توحيد الحضارات والتراث. وحتى في الدول المؤلفة من قوميات عديدة، فإن الحفاظ على شخصية حضارات هذه القوميات، والإبقاء على استقلالها، هو ضرورة ثقافية فضلاً عن أنه ضرورة قومية ووطنية.

إن الدعوة القومية في حقيقتها ليست دعوة عنصرية، بل هي دعوة حضارية، هكذا نفهمها، ونستطيع تنظير فكرنا القومي على هذا الأساس دون أن نخلق حواجز بين القوميات تقوم على التمييز العرقي أو التفوق القومي، فالقومية هي وجدان الحضارة والحضارة هي المضمون المشخص والمادي للقومية.

إن هذه المنطلقات الأساسية لمفهوم القومية تضعنا أمام حقائق تراثية وتاريخية تشكل علماً نسميه تاريخ الحضارة، وهو بحد ذاته علم القومية. وهذا يعني أن الانتساب إلى قومية معينة هو انتساب لحضارة وثقافة هذه الأمة. وإن الانتماء القومي يزداد وعياً بازدياد التعمق بعلم القومية، أعني تاريخ الحضارة.

الكيان الدولي:

إن وحدة الشخصية العربية، هي العامل الأساسي في بناء الأمة العربية وفي استمرار وحدتها التي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا، على الرغم من التجزؤ السياسي المفروض والذي لم يستطع إطلاقاً القضاء على الوحدة القومية الراسخة منذ القدم، ولن يستطيع الحؤول دون الوحدة السياسية والاقتصادية الحتمية[١].

وهدف العرب من وحدتهم لا يمكن أن يكون عاطفياً، ما دام أن الوحدة القومية قائمة من خلال التراث واللغة والأفكار والآمال الموحدة، بل هو هدف علمي يحقق أهدافاً مشتركة ومصالح متكاملة.

ثم إن قانون التطور إذ يفرض على الواقع العربي الارتفاع إلى مستوى الحضارة المعاصرة، فإن هذا القانون أصبح عاجزاً عن تدارك التخلف المؤسف الذي تعانيه، ومع ذلك فإن مؤشره يبقى متجهاً نحو الأمام، نحو الأفضل والأرقى، ما دام أن تكوُّن المجتمعات والحضارات عضوي يجنح حتماً نحو التكامل والنمو. ولكن عندما يكون جسم هذه المجتمعات مجزأ، فإن عملية النمو تبقى قاصرة ضعيفة، وهذا ما تعانيه الدول العربية في واقعها المجزأ، على الرغم من جميع المحاولات التي تقوم بها سواء بتأثير الحركات الثورية، أو بفعل الموارد النفطية الهائلة، أو نتيجة عمليات الاستيراد الثقافي الغربي التي يعتقد بعض العرب أنها الطريق السليم إلى مجاراة العالم المتقدم.

ومن المؤسف أن التجزؤ إذ يحول دون تكامل اقتصادي يرفع من مستوى

[١] سيكون بحثنا مرجعاً من المراجع بالضرورة، لأنه محاولة لاستشراف مستقبل حضاري.

المعيشة والحياة لدى الإنسان العربي، فإنه يحول أيضاً دون البناء الثقافي المتطور الذي يحقق حضارة حديثة معادلة للحضارات المعاصرة.

إن الواقع العربي المجزأ هو سبب النكبة الثقافية التي نعانيها، فإذا كانت اللغة العربية هي عامل الوحدة القومية والثقافية في العالم العربي، فإنها مع الأسف لم تستطع وعلى الرغم من ملايين المؤلفات وعلى الرغم من آلاف الكتاب والباحثين والمحققين الذين ينشرون دراساتهم وإنتاجهم يومياً في الكتب والمجلات والصحف، أن توسع نطاق الاتصال بإنتاجهم خارج حدودهم السياسية الضيقة التي خلقت ألف سبب لعرقلة دخول وخروج هذا الإنتاج، وهكذا فإن مؤلفاً ما، سواء أكان قصة أو ديوان شعر أو بحثاً جامعياً. لا يستطيع أن ينتقل من كاتب في دمشق إلى قارئ في القاهرة ذاتها بسبب صعوبة النقل من حيث التكاليف والتعقيد والرسوم، وسبب صعوبة التبادل النقدي، وغير ذلك من الأسباب.

كذلك أمر النتاج الفني من لوحات أو تماثيل، أو نقل الآثار الفنية وتبادل الآثار الفنية وتبادل الآثار المتحفية، وهو ما يعزز معرفة الحضارة العربية موحدة متكاملة.

وإذا كان هدف كل أمة تقوية شخصيتها الثقافية، فإن هذه الشخصية لا يمكن أن تقوى بمعالجة جزئية أو جانبية، فالأمة العربية المتمثلة بلسانها الموحد البليغ، وبفنها المتميز العريق، وبتراثها الفكري المتكامل، هي وحدة حضارية راسخة لا يمكن تحريكها جزئياً، بل لا مناص من معالجتها في حالتها الكاملة بعيداً عن جميع الحدود والعوائق.

إن من أهم أهداف الوحدة القومية هو تحقيق بناء الكيان العربي دولياً لكي يستطيع هذا الكيان توحيد المجابهة مع تيارات العالم ونوازعه ومطامحه.

وتتجلى عناصر قوة الكيان العربي في الطاقة البشرية العربية، وفي الطاقة المادية.

صحيح أن العرب يتجاوزون مئة مليون عدداً، وأن المتكلمين بالعربية يصلون إلى ضعف هذا الرقم، وأن المسلمين في العالم يتجاوزون سبعمائة المليون وكلهم ينظرون إلى العرب أصحاب الدعوة الإسلامية وسكان المناطق المقدسة نظرة احترام وتقدير، ولكن هذه الأرقام الكبيرة لم تستخدم فعاليتها بعد لبعث الحضارة العربية.

إن القوة العربية المتمثلة بالطاقة البشرية والطاقة البترولية، لم تعبأ إلا متأخرة جداً. إن طاقة العرب البشرية هي طاقة إنتاجية ضخمة استطاعت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن تتطور بسرعة وأن يتكاثر فيها عدد الاختصاصيين من أطباء ومهندسين وجامعيين وفنيين تزايداً سريعاً، ولكن الظروف غير المستقرة التي مرت بها البلاد العربية بعد تحررها من الاحتلال الفرنسي والانكليزي وبداية العدوان والتوسع الإسرائيلي، قد فسح المجال أمام أعمال سرقة العقول التي تمارسها أمريكا وألمانيا الغربية وغيرهما من الدول الامبريالية، مما أدى إلى هجرة أعداد ضخمة من الأطباء والمهندسين والفنيين وحرمان البلاد من اختصاصهم في أشد ظروف الحاجة إليهم.

أما الطاقة البترولية والتي تؤلف أكبر رصيد للثروة القومية العربية، فإنها في الوقت نفسه تؤلف أهم أساس للحركة الصناعية في العالم كله. ذلك أن (احتياطي) البترول العربي يؤلف ٥٤% من (احتياطي) البترول في العالم، وأن إنتاج النفط العربي يؤلف ٤٠% من إنتاج النفط العالمي، في حين أن إنتاج النفط الأوربي ٣%، وتحتاج أوربا إلى ٣٥% من الإنتاج العالمي لاستهلاكه وتصنيعه، أما أمريكا التي تنتج ٢٧% من الإنتاج النفطي العالمي، فقد أضحت تحتاج إلى ما يقرب من ٣٧% لتغطية احتياجاتها الصناعية والطاقية.

ثم إن الطاقة البترولية إذا كانت ضرورية لمتابعة الإنتاج الصناعي في الغرب، فإنها بالنسبة للدول العربية المنتجة للبترول المصدرة له، ثروة تستنفذ بسرعة وبأرخص العائدات. ولقد كان من أبرز مظاهر تخلف الدول العربية أنها لم تفد من هذه الطاقة في تطوير حياتها. بينما تتبدد هذه الطاقة لتأمين أقصى حدود الرفه الاجتماعي في العالم المتقدم.

الأصالة والمستقبلية:

وجدت مسألة الأصالة مكانها الصحيح على الأرض العربية، ليس فقط بفعل ظروف الوجود السياسي المتحرر، بل كأساس قومي لتحديد شخصية متفردة للثقافة الجديدة في البلاد العربية.

إن حقيقة القومية لا تظهر فقط من خلال التسمية أو وحدة اللغة، بل إنما تظهر من خلال وحدة الشخصية الحضارية، فإذا كانت هذه الوحدة الحضارية قائمة في التاريخ فإن تحقق وجودها موحدة في الحاضر، بعد تلك الأحقاب المظلمة

من الانحطاط والسيطرة الأجنبية، هو المسألة الأساسية التي يجب جعلها هدفاً لبرنامج العمل القومي.

وفي مجال الفكر والفن وهما مظهران للحضارة، كانت الأصالة هي الشرط اللازم لتحقيق الوحدة الحضارية ومن ثم لتحقيق الوجود القومي الجديد.

لقد كان مفهوم الأصالة قائماً على العودة إلى الماضي كما كان يفعل أصحاب الدعوة إلى الكلاسية القديمة في بداية القرن الماضي من أمثال دوكانسي ودافيد في العمارة والفن، ولكن هذه الدعوة فاشلة لأن آثار الماضي عظيمة بذاتها وتبعاً لظروفها، فالرجوع إلى الماضي نكسة لا يمكن تبريرها، ذلك لأن الحاضر يبقى أفضل من الماضي لأنه إضافة إلى مكتسبات الماضي وليس نقصاناً، حتى في حالات التقهقر، فإن ثمة تجارب جديدة يستفيد المرء من معاناتها، فتكسبه معرفة جديدة لوجه آخر من وجوه الحياة، ولكن الحاضر أيضاً ليس هدفاً ولا يمكن أن يكون هدفاً، لأنه غير موجود أصلاً، فجميع المنجزات التي نحققها اليوم تضاف إلى الماضي. ولكن الهدف هو المستقبل. بمعنى أن ما نكتسبه إنما هو ذخيرة وعدة للمستقبل، إن التراث يحمل صفة الديمومة أما الماضي فيحمل صفة الانقضاء والانتهاء والتجاوز. التراث هو العطاء القومي الحضاري المتزايد الذي يتجهز به الإنسان في مجتمع من المجتمعات لخوض غمار المستقبل، وهو دائم ومتنام ولا يرتبط بمرحلة واحدة من مراحل التاريخ، فالتراث العربي لا ينتمي فقط إلى العصر الأموي أو العباسي أو الأندلسي أو العصور الأخرى، وإنما ينتمي أيضاً إلى جميع المراحل السابقة التي كان الإنسان العربي يقدم فيها عطاياه ومنجزاته بدءاً من فجر وجوده. وبهذا فهو يشكل روح الحضارة والتاريخ، لأنه حصيلة التطور الفكري والعقائدي والإبداعي، كما هو حصيلة التحولات السياسية

والاجتماعية والاقتصادية.

والأصالة ليست دعوة طارئة بل هي شرط أساسي لمشروعية العمل الفني والأدبي. العمل الفني المرتبط بروح حضارة أمة من الأمم هو العمل المشروع. ولكن عندما ينفصل الفنان عن مجتمعه وتراثه إلى تقاليد وتراث أمة أخرى، فإن هذا الانفصال الذي يسمى "الهجرة" أو يدعى "الاغتراب"، إنما يحدد الانتماء الجديد الذي يقوم به فنان ما ويحدد هويته الجديدة. ولن نقف كثيراً عند هذه المحاولات الفردية، إذ ما يهمنا هو توجيه الانتباه إلى الهجرة الجماعية أو الانتماء الجماعي لحضارة أخرى أو لتراث آخر، إن هذا لا يمكن أن يأتي طوعاً حتى في المجتمعات الموحدة وذات القوميات المتعددة، بل هو إذعاني جاء نتيجة ظروف الإكراه والاستلاب الاستعماري. وهذا هو وصف الواقع الثقافي في البلاد العربية كلها منذ بداية السيطرة الشعوبية والاستعمارية التي كانت في الواقع سيطرة حضارة على حضارة.

ومع ذلك فإننا نقول إن هذه السيطرة الإذعانية رافقها في العصر الحديث نوع من الرغبة الطواعية بعصرنة الحياة العربية وتطويرها على غرار ما يجري في الغرب، ولقد ظهر تيار العصرنة هذا مبرراً أمام التخلف الشديد الذي آلت إليه البلاد العربية، بينما كان الغرب يجتاز الطريق في عصر النور حتى الذروة.

إن مسألة العصرنة هذه كانت في الواقع ذات حدين، فهي من جهة طريق إلى الإصلاح والنهضة لا بد أن يستمد قوته من تجارب الآخرين الناجحة، ومن جهة أخرى هي دعوة إلى الانفصال المتزايد عن روح الحضارة العربية، وهذا ما توضح لأصحاب النزعة القومية والمثقفين المناضلين الذين وجدوا أخيراً أن خطر

هذه العصـــرنة قد يطغى على قواعدها. وكان انتقادنا أن المعاصـــرة كانفتاح على تيارات الثقافة في العالم ممكنة في مجال العلم وفي مجال الوسائل والأساليب التي تختصـــر المســـافة إلى تحقيق الأهداف الإنســـانية، ولكنها تفقد مبررها في مجال التعبير عن الهوية القومية وفي مجال بناء الشخصية العربية الأصيلة[٢].

ونحن ننتقد فكرة المعاصرة التي تتضمن في حقيقتها التقليد والمحاكاة واستيراد الأساليب الغربية، والتي كانت السبب في التخلي عن الشخصية الفنية الأصيلة للالتحاق بالشـــخصـــية الفنية الغربية. أما المعاصـــرة بمعناها العام أي معايشـــة الظروف الراهنة والتطلعات المستقبلية فهي أمر مقبول ولكن لابد من إيضاحه.

ليس القصد من الدعوة إلى الأصالة والمعاصرة أن نوفق بين اتجاهين، اتجاه يسعى إلى تأكيد الحفاظ على الهوية القومية، واتجاه يسعى إلى تأكيد عالمية الفن. ولكن هذه الدعوة تعني تحقيق أصالة في الفن متجددة ومتطورة ومرتبطة بطموحات الإنسان، فالمعاصرة هنا تعني التقدم، تعني التطلع نحو التجديد وتعني الإبداع، وقد نقترح عنواناً جديداً لهذه الدعوة فنقول إنها الأصـالة والإبداع لكي نضـع هذه الدعوة أمام أهدافها الصحيحة وننقذها من محاولة التوفيق التي يسعى إليها كثير من الذين تحدثوا في هذا الموضوع بتردد واضح وبتبن سطحي لهذه الدعوة.

فعندما نعتقد في فننا الأصالة، فإن ذلك يعني إعادة النظر بصورة شاملة بهذا الفن الذي نمارســه والذي يفترض أن نتذوقه. إننا نقول إنه إذا كانت ممارســة الفن الهجين، الفن المســتورد، قد فرضــتها كليات الفنون الأجنبية والمعاهد الفنية العربية التي ما زالت تطبق المناهج الغربية، فإن التذوق الفني ما زال بريئاً معافى، بدليل

[٢] انظر كتابنا: الفن والثورة، ص ١٨٨.

أنه لم يستجب حتى الآن استجابة صادقة وعفوية لهذا النوع من الفن. وهذا أمر هام لم نعره بعد اهتماماً صحيحاً، بل إننا على العكس، نتهم الجمهور بالجهل وعدم الثقافة الفنية، ولكننا أبداً لم نقل، إننا نقدم لهذا الجمهور الفن الذي لم يعتده ولا يتصل بجذور ثقافته وتراثه.

إن تعريف الأصالة ما زال غير واضح عند من كتب في هذا الموضوع، فكأن هذا الاصطلاح يعني تفسيره اللفظي المعجمي. ولكنه في الواقع أصبح دلالة ومبدأ، إنه عنوان لنزعة قومية تسعى إلى توضيح الهوية العربية في العصر الحديث وعلى هذا الأساس فإن الأصالة الفنية كما نراها هي: (تحقيق عمل إبداعي ينتمي إلى شخصية تراثية متميزة بأسسها الجمالية) وهذا التحقيق يمر بثلاث مراحل: رفض الثقافة الغربية أولاً، والكشف عن معالم الشخصية الذاتية ثانياً، ثم مرحلة تمثل هذه الشخصية في الأعمال الإبداعية.

ذكرنا في هذا البحث معنى التراث فقلنا إنه عطاء حضاري وقومي متزايد وهذا يعني أنه لا بد أن نعرف أولاً تاريخ تطور هذا العطاء الحضاري الطويل منذ بدايته حتى يومنا هذا، مروراً بجميع حالات الصعود والهبوط، الأخذ والعطاء، الاستواء والانحراف. ويجب أن نعترف بضعف ثقافتنا الفنية، فنحن ما زلنا متخلفين في تدريس فننا وتاريخه في معاهدنا الفنية كمرحلة من مراحل تطور الفن في العالم على الأقل.

إن مادة تاريخ الحضارة هي من المواد الثانوية في تعليمنا العام والجامعي، وأن المؤلفات العامة في هذه المادة تكاد تكون معدومة.

وما زلنا نعتقد أن نقطة البداية في عملية التأصيل هي التخلي عن الجماليات الغربية والكف عن التقليد، وتقييم تجارب الآخرين من خلال مفاهيمنا وتقاليدنا وظروفنا وطموحاتنا.

على أن المسألة التي تبدو أكثر أهمية هي مسألة الالتزام، ومع تأكيدنا لرأينا في الالتزام وتميزه عن الإلزام ومع إيماننا بالحرية الإبداعية المسؤولة فإننا نرفض القول إن الالتزام مسألة منفصلة عن مفهوم الأصالة، وأن الفنان الملتزم يمكن أن يكون أصيلاً أو هجيناً في أسلوبه. وأن الالتزام مسألة مضمون وموضوع وأما الأصالة فهي مسالة أسلوب. بل إننا نرى التحاماً صميماً بين الأصالة والالتزام، فإذا كانت الأصالة هي تمثل التراث من أجل بناء المستقبل، فإن التزام القضايا العامة هو النسغ الذي يغذي الممارسة الفنية من عملية التمثيل حتى تحقيق الهدف.

الثقافة الخلاقة والثورة

عندما نتحدث عن ثقافة معاصرة فإن هذا يعني الحديث عن ثقافة ثورية، ذلك أن العصر الذي نعيش يقوم على تغيير متفجر في المفاهيم والظروف والتطلعات. بينما قامت العصور الخالية على مفاهيم التطور الطبيعي، والثقافة إذا كانت وسيلة الإنسان إلى فهم الحياة، فإن هذه الوسيلة لا بد أن تصبح منسجمة مع الهدف قادرة على مجاراته وفك رموزه وفتح الآفاق نحو منظوراته المختلفة. ومن المؤسف أن واقع الثقافة في البلاد العربية ما زال متخلفاً عن تطور الحياة، فمع أن جزءاً من الأرض العربية لم يصل بعد إلى مستوى الحياة في القرن العشرين إلا أنها تتجاوز كثيراً من العقبات لكي تعوض من التخلف الذي لحقها، بيد أن الثقافة

الثورية هي المناخ الصحيح السليم الذي يمكن أن يتعايش مع التقدم السريع الذي تمارسه الأمة العربية في كثير من المجالات.

ولكن الثقافة إذا كانت وسيلة، فهي تختلط بالهدف، فهي عندما تكون خلاقة تضيف إلى الحياة كسباً جديداً. وتغني الإنسانية بمعين إضافي طارف. فالحياة ليست مستقلة عن الإنسان، وفهم الإنسان للحياة يعني فهمه لذاته. والخلق الثقافي يعني زيادة في حجم الوجود الإنساني وزيادة في حجم الحياة.

والحق أن الثقافة ليست مجرد عملة تتداول بواسطتها الخدمات الحياتية، بل هي المعارف ذاتها التي نمارس بواسطتها الوجود الواعي والحضاري، وبين هذه المعارف ووجودنا علاقة سببية متبادلة، فلا يكاد يكبر الأول حتى ينعكس حجمه على الآخر.

ولكن ثمة خللاً واضحاً في تناسب الثقافة العربية مع الوجود الحضاري العالمي. فلقد امتدت آثار التقدم العلمي والتقني والفكري المذهل خلال هذا القرن إلى جميع أنحاء العالم، وعاش الناس جميعاً على اختلاف ظروفهم في عصر المتناهيات، المتناهي في الصغر، والمتناهي في الكبر والمتناهي في المدى.

ولكن الثقافات استمرت تتنامى ضمن إطارها القومي، ولم يكن لها أن تتداخل مع غيرها من الثقافات، لأنها بذلك تفقد خصائصها وتعيش تابعاً لغيرها. ولأنه لا يوجد ما يسمى بالثقافة العالمية، بل مجموعات من الثقافات القومية تحدد مستوى العصر، فإن ازدهار ثقافة ما يعني إغناء مستوى العصر. ومع أن من المصلحين

الثقافيين من رأى خطأ أن إصـــلاح الخلل بين الثقافة والوجود الحضـــاري هو في انتماء الثقافة القومية إلى الثقافة المتقدمة، فإن هذه الدعوة تتعارض جوهرياً مع طبيعة الثقافة التي يجب أن تبقى قومية تأخذ جذورها من الأصـــول الفكرية والفنية للأمة، وتنمو في مناخ الحياة الاجتماعية والسياسية وفي مناخ الطموحات الشعبية.

والسـبيل الوحيد لجعل الثقافة القومية بمسـتوى العصـر المتفجر، هو جعلها ثورية. وما الثقافة إلا حصيلة فعالية الإنسان في نطاق العقل والطبيعة. إنها معرفة وعلم ومكتسبات مطلقة ونسبية إلى جانب كونها تفاعلاً مستمراً مع الطبيعة وليس الإنسان المثقف مجرد حيز لاستيعاب المعارف بل هو مفاعل لتحويل هذه المعارف إلى وسائل توسع مفهوم الإنسان عن الحياة.

أما الثورة فهي نزوع مسـتقبلي طموح يكشـف الجهد الإنسـاني لبناء حضـارة الإنســان وإلى تكريس هذه الحضـــارة وجعلها حية باســتمرار. ولكن الثقافة والثورة تعرضـــتا إلى ظروف صـــعبة حرفت حقيقتهما، وكان من أخطر هذه الظروف (القمع).

فالثقافة من حيث هي فعالية في نطاق العقل والطبيعة لم تتمتع بممارســـة إنســـانية كاملة. فالعقل كان في حالة اســـتلاب في ظروف النظام الفلســـفي الميتافيزيقي وفي حالة قمع في ظروف النظام اللاهوتي، وفي عصـــرنا الحالي يخضع العقل لظروف الإنتاج الآلي الصناعي.

أما الطبيعة فلقد كانت أمام أحد اتهامين، إما أنها مضـــادة للعقل كما اتهم

الرومانســـيون والمثاليون، وإما أنها متطرفة في الارتواء، كما تم بالنســـبة لبعض المثقفين الذين عبروا عن ممارسة متطرفة للحرب والحب واللذة والتمرد.

وتعرضت الثورة أيضاً لحركة قمعية رجعية في حقيقتها وإن كانت تعلن دائماً عن غيرتها على التراث وعن دعوتها المستمرة إلى تأصيل الثقافة. ولكن لا بد من تحليل معنى الثورة والثقافة كل على حدة فالثورة في حد ذاتها نزوع مستقبلي طموح يكثف الجهد الإنساني ويقرب المسافة إلى حضارة الإنسان. أي أن الثورة ليست تفسيراً لحركة انفعالية تجابه حدثاً أو واقعاً سيئاً، بل هي أسلوب في الحياة يرتبط أكثر فأكثر بمعنى الإنسان المتحرك الفاعل، كما يرتبط بصورة أقوى بمفهوم الزمان المتغير باســتمرار. والإنســان من حيث هو النموذج الزمني المشــخص، مطالب بتكثيف وجوده، وبمعنى آخر هو مطالب بالتحرك المســتمر باتجاه مســتقبل أكثر بعداً واتساعاً من الحاضر أو من الماضي، وهذا التحرك الفعال المسؤول هو شكل الثورة ومضمونها، ملتحمين متداخلين.

وهكذا فإن الثورة ليست شعاراً نظرياً منفصلاً عن الإنسان وإرادته وطموحه. بل هي الوجود الجديد للإنسان في مجتمع يتجدد باستمرار.

والحق أن الفارق بين الماضي والتراث يكاد يكون ضعيفاً جداً، ولقد سبب هذا الاختلاط بينهما غياب الأصالة عن الثقافة.

وثمة دعوة تجلت في بداية القرن الماضــي في أوروبا تدعو لإحياء الماضــي الرصــين الرائع، الكامن في الثقافة الكلاســيكية الإغريقية الرومانية وجعله نبراســاً

للثقافة الحاضــرة، وقال هيغل نفســه في هذا المجال: "لا يمكن لأي هوميروس أو سوفولكس، أو لأي دانتي أو اريستد أو شكسبير أن يظهر مجدداً في عصرنا هذا، فما غنوه بهذه العظمة غنوه حتى النهاية، وما قالوه بهذه الحرية قالوه حتى النهاية".

لقد فهمت الثورة على أنها تحطيم للقيم وعلى أنها نقمة ضـد الأصـالة ولعلها مورست على هذا الشكل أحياناً، فكان رد الفعل شديداً وغاشماً في استنكاره لمفهوم الثورة إطلاقاً. ولكن الرؤية السليمة لمفهوم العصر الحديث توضح لنا مفهوم الثورة. فلم يكن هذا العصر هداماً متشائماً ولم يكن منقطع الجذور. بل هو عصر تتسارع فيه المستحدثات والاختراعات بصورة شاقولية ويقف الإنسان المنتسب لهذا العصر وراء هذا التسـارع كما يقف في قمته، أما الإنســان المثقف الذي يقف على أعتاب هذا العصـــر فإنه ما زال يفتقر إلى الهوية الثورية التي تســاعده على دخول هذا العصر.

والثقافة الثورية موقف يتجاوز فيه الإنســان الظروف الرجعية والسـكونية كما يتجاوز فيه جميع وسائل الكبت والقمع، لكي يساهم في الكشف عن أسرار الوجود ويجدد معنى الحياة.

ونفهم من هذا أن الثقافة الثورية إذا كانت تحدياً للقيم الثابتة وللمؤســســات القمعية، فإن هدفها من وراء ذلك ليس مجرد التحدي والتهديم، بل الخلق والتجديد. وهذا الخلق والتجديد هو جوهر الثقافة.

وإذا نظرنـا إلى هـذه المعـاني من زاويـة جـديـدة فـإننـا نرى الثقـافـة والثورة

متلازمين، كل واحد شـــرط للآخر وصـــفة لازمة، فالثورة هي موقف ثقافي بناء، والثقافة هي ممارسة ثورية بناءة.

إن جعل عالم الثقافة عالماً بلا إرغامات كما يقول ماركوز، وهو يرى أن حرية الارتواء ضرورية لخلق حضارة جديدة تقوم على الحب وعلى ممارسة نوع من التصـعيد الذاتي البعيد عن ضـغوط القمع، هذا العالم المتحرر من الإرغامات التي خلقت منذ القديم حالات العوز ونقصـان النضـج، يقتضـي فرض إرغامات جديدة لحماية نظام قائم على الحرية، فهل يعني هذا أن الثقافة لا يمكن أن تبقى حرة إذا كانت مرغمة على ممارســة نوع من الحرية، بل يبقى المثقف في حالة انســلاب وتعليق؟

وجوابنا أن الإرغام على الحرية لا يمكن أن يكون خارجياً وإلا فإن الحرية تفقد معناها، بل إننا إذا أردنا اســتعمال كلمة غير الإرغام، أو الإرغام الذاتي، فإن الالتزام الطوعي لممارســة الحرية يمكن أن يضــمن اســتمرار الصــفة الثورية في النشاط الثقافي.

ويبقى الوعي هو المنظم للحرية، والإنســان الواعي هو القادر على تحديد اتجاه حريته متنقلاً من موقف إلى آخر بمنطق ثوري ينزع عن الحرية الصــفة الإرغامية محتفظاً فيه بصفاته التي تربط الحرية بالحياة والإنسان والواقع.

على أنه لا بد إلى جانب الوعي من ممارســة التخيل المبدع الذي يعطي الثقافة روحاً فنية وأدبية، لأن العقل في الثقافة يمارس في حد ذاته ســلطة قمعية

كانت محل اعتراض دائماً، أما التخيل فهو إذ يحمل من الحقيقة ما لا يتناسب دائماً مع العقل، فإنه يبقى أداة معرفة، لأنه يتضمن حرية الرفض لتحقيق التكامل بين الإنسان والطبيعة.

والتخيل هو سبيل الخلق في الثقافة، بينما الوعي هو سبيل استيعاب المعرفة، ولا بد للثقافة من أن تقوم على الوعي والتخيل، على العقل والطبيعة. وهذا ما جعلنا نطلق على الثقافة صفة الخلق لنميزها عن الثقافة السكونية، الثقافة المنفعلة.

إن الهدف الأساسي للثقافة هو خلق وجود حضاري إنساني والثقافة بهذا المعنى تبقى مرتبطة بمجموعة إنسانية معينة، ترتبط بتراثهم وواقعهم وآمالهم، ليس ارتباط تبعية بل ارتباط مسؤولية يحملها مهمة القيام بدور بناء في مجال المحيط الذي فيه الإنسان يعيش، ومن خلال المشاكل والتطلعات التي يمارسها. فالثقافة الخلاقة أو الثقافة الثورية تعني التحرك الفعال المستمر في مجال المسؤولية الواعية، فهي أسلوب متجدد في الحياة وليست وسيلة، وهي مرتبطة عضوياً بآلية التطور والبقاء والارتقاء، وتتجه الثقافة الثورية إلى بناء الإنسان المعاصر، أي الإنسان المنتمي إلى العصر، لتحريره من جميع الأفكار القبلية والايديولوجيات الثابتة، ومن جميع المؤسسات القمعية التي تجمد فاعليته وتكبت قدرته على التحرك والخلق. وتسعى إلى خلق مجتمع سيد قادر على المبادهة والمشاركة في البناء والعمل، متحرر من روح الخنوع ومن استمرار العبودية والاستغلال ومن الكسل والاتكالية والجهل.

والثقافة الثورية تتجه إلى الضمائر لتنمي لديها قيماً جديدة كما يقول غيفارا. ولتربى فيها الحوافز الإنسانية والقومية لزيادة الإنتاج الحضاري ورفع مستواه.

ولعل أهم ما تسعى إليه الثقافة الثورية هو إمداد الثقافات العالمية بمنجزات فكرية وفنية وأدبية جديدة تغني الحضارة الإنسانية وتزيد من مكتسبات العصر: بينما تسعى الثقافة السكونية إلى الاستيراد والنقل، وتمثل الثقافات الوافدة، ويشوه هذا، الثقافة القومية.

ولقد قامت الثورة الثقافية في الصين لتقضي على فكرة استيراد الثقافات الأجنبية وهو ما يسمى بسياسة (المائة زهرة). ولكننا هنا في جزء من البلاد العربية، ما زلنا ندعو إلى النقل والاستيراد والترجمة دون الاهتمام الجدي والعلمي بتشجيع البحث والإنتاج الثقافي الخلاق.

وثمة ما يعني الثقافة الثورية في بناء الإنسان وهو تمييز الناس بحسب عملهم وإنتاجهم وإبداعهم، الذين يعملون والذين لا يعملون. إن مهمة الثقافة الثورية أن تنهي عهد الكسالى العقماء والطحالب المستغلين للثقافة، وأن تمسح آثارهم في تخلف المجتمع. وأن تدعم دور المبدعين والمستقبلين.

وإذا كانت الثقافة الثورية من أجل الناس من أجل حريتهم ومستقبلهم فإنها تتجه أيضاً لنقص أخلاق الخنوع والذل وللقضاء على سلوك العنف والجريمة لتبني أخلاق الحب والتضحية وأخلاق الثقة والطموح، ولتقوى علاقات الناس فيما بينهم وتدعم بناء الأسرة وتنظم الحياة الاجتماعية على أساس العدالة والحرية والفرح.

المحتويات

القومية–الحضارة ٦

الكيان الدولي: ١١

الأصالة والمستقبلية: ١٤

الثقافة الخلاقة والثورة ١٩